مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

موقعة البزاخة

الدكتور
زهير القريب

درس المؤلف حرب الردة من خلال موقعة البزاخة الحاسمة التي تمثلت في خطورة تلك الحرب التي هددت الوجود الإسلامي في المدينة ذاتها. فقبائل الأطراف في بلاد العرب رفضت الإسلام كنظام سياسي ورأت في الزكاة جزية يتضمن دفعها الإصغار والإذلال، ولكنها خضعت للرسول بعد غزوة تبوك قبولاً للأمر الواقع؛ فما أن سمعت بوفاته حتى شقت عصا الطاعة بل وعملت على مهاجمة الإسلام في عقر داره مؤملة القضاء عليه قضاءً مبرماً. ولكن أبا بكر رفض مختلف الاجتهادات وأصر على مواجهتها ومحاربتها ونقل وطيس القتال إلى ديارها. فكانت موقعة البزاخة المذكورة إحدى المواقع الحاسمة.

أبرزت الدراسة قوة العصبية القبلية في تلك المناطق عندئذ ومقدرة أبي بكر السياسة في التعامل معها بمحاولة التفريق فيما بينها وفك تحالفاتها، كما وضحت ثراء تجربته وعمق تفكيره وبعد نظرته وقدرته على تقدير المواقف والتصرف وفقاً لمعطياتها حيث تدارك الأمر في الوقت المناسب واختار أحسن القادة شجاعة وخلقاً والتزاماً ووجههم التوجيه الصحيح.

أما الموقعة ذاتها فرغم التمهيد لها والاحتياطات والاستعدادت المسبقة فإنها لم تكن سهلة هينة ـ كان الخصم طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة ذا مكانة مرموقة في عشيرته استطاع أن يعقد تحالفاً مع عشائر أخرى واستعد للمواجهة والقتال بخطة وانتظام. وفي المقابل كان خالد بن الوليد الذي استطاع بعبقريته العسكرية وإيمانه العميق وجسارته النادرة النظير أن يستدرك الأمر في الوقت المناسب فينتزع لنفسه ولجنده وللإسلام النصر الذي كان بداية النهاية للارتداد في الجزيرة العربية.

أعتقد بأن الدراسة الملخصة أعلاه دراسة جيدة وهامة ومفيدة أخضعت للبحث ظاهرة هامة وخطيرة استفحلت إثر وفاة النبي وكادت تقضي على الإسلام في مهده وهي ظاهرة الارتداد ـ وهي على خطورتها لم تنل حظها المناسب من العناية. وجاءت دراستها هنا من خلال إحدى مواقعها الحاسمة التي قدمت في إطارها التاريخي باستحضار مختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية والعسكرية ـ منبهة بصورة عملية إلى أن ظاهرة الردة شأنها شأن الكثير من الظواهر والوقائع والأحداث التي نمر بها مروراً عابراً في التاريخ الإسلامي في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيها ودراستها الدراسة العلمية المنهجية من أجل استجلاء حقيقتها ووضعها في مكانها الصحيح من تراثنا.

اعتمد المؤلف في دراسته على جملة من المصادر والمراجع والدراسات تراوحت بين كتب التراث التي تعتبر مصادر أولية والدراسات التاريخية المعاصرة وكتب السير الذاتية وبعض الكتابات الأدبية، وكان موفقاً في استخدامها.

وأعد دراسته بأسلوب جيد ولغة علمية، مستبعداً العبارات الحماسية العاطفية التي من شأنها أن تشكك في موضوعيته. لقد تخللتها بعض الأخطاء اللغوية وهي قليلة نادرة يمكن تداركها بتحويلها إلى مصحح لغوي لتصحيحها، وربما يعني نفس المصحح بالرسم الإملائي فيما يتعلق بوضع الهمزة المسبوقة بحرف ساكن أو متحرك وهي مسألة اجتهادية وتشكل في نهاية الأمر مسائل شكلية هامشية.

صلاح الدين حسن السوري
عضو هيئة التدريس بكلية التربية
جامعة الفاتح ـ طرابلس

موقعة البزاخة

كان للسرايا والغزوات التي قام بها المسلمون في حياة الرسول ﷺ، ونحفي بالذكر منها الحملة الكبرى التي وجهها الرسول بقيادته إلى تبوك في العام التاسع للهجرة وهي حملة لم تشهد بلاد العرب لها مثيلاً من قبل، أعظم الأثر في بسط سلطان المدينة على معظم قبائل العرب في شبه الجزيرة العربية، ولم تلبث هذه القبائل أن أرسلت وفودها في العام التاسع معلنة خضوعها لدولة المدينة، على أن خضوع قبائل الأطراف لسلطان المدينة لم يكن عميقاً في جذوره، مكيناً في أسسه، ولم تكن هذه القبائل تخضع لسلطان المدينة إلا لما تبين لها تصميم النبي ﷺ، وتمسكه بفكرة توحيد الأمة العربية كلها في ظل الإسلام. فقبلت أن تعترف بهذا السلطان طالما كان هذا الوضع مرهوناً بحياة الرسول ﷺ، ثم إن ما فرضه الإسلام من الزكاة على المسلمين أوجد نوعاً من الإحساس بالإذلال والتصاغر عند هذه القبائل لم تألفه قط على الرغم من أن الإسلام لم يعتبر الزكاة جزية أو أتاوة يدفعها المغلوب، وإنما اعتبرها صدقة، وعلى الرغم من أن رسول الله ﷺ لم يجد من الشعور بالاستقلال الذي كانت هذه القبائل تنعم به فترك لها كيانها[2] فلم تفقد بدخولها في الإسلام شيئاً من حريتها، ولم يكن سلطان المدينة يتجاوز العهود التي ارتبطت بها هذه القبائل مع الرسول ﷺ، ووجود ممثلين للمدينة في هذه القبائل للإشراف على جمع الزكاة، كل ذلك لم يمنع هذه القبائل من أن تكتم سخطها على هذا الوضع وأن تتحين الفرصة المناسبة لقطع ما كان يربطها سياسياً بالمدينة، فتطرد عمال الصدقات، وتنبذ الطاعة، وتتنصل من التبعية.

ولم يكن عدد كبير من عرب الأطراف قد اعتنقوا الإسلام عن إيمان راسخ به وفهم عميق لأصوله، وإنما هيبة وخوفاً مما يصيبها من الردع، أو لمجرد التبعية لرؤسائهم، ولم يكن رسول الله ﷺ يشترط عليهم للإسلام سوى تطبيق قواعده

---

(1) بزاخة: ماء لبني أسد بالقرب من مكة، معجم البلدان جـ2 ص 161 ياقوت، والطبري: تاريخه: جـ 3 ص 228.

(2) عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص 42 عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية: ص 436.

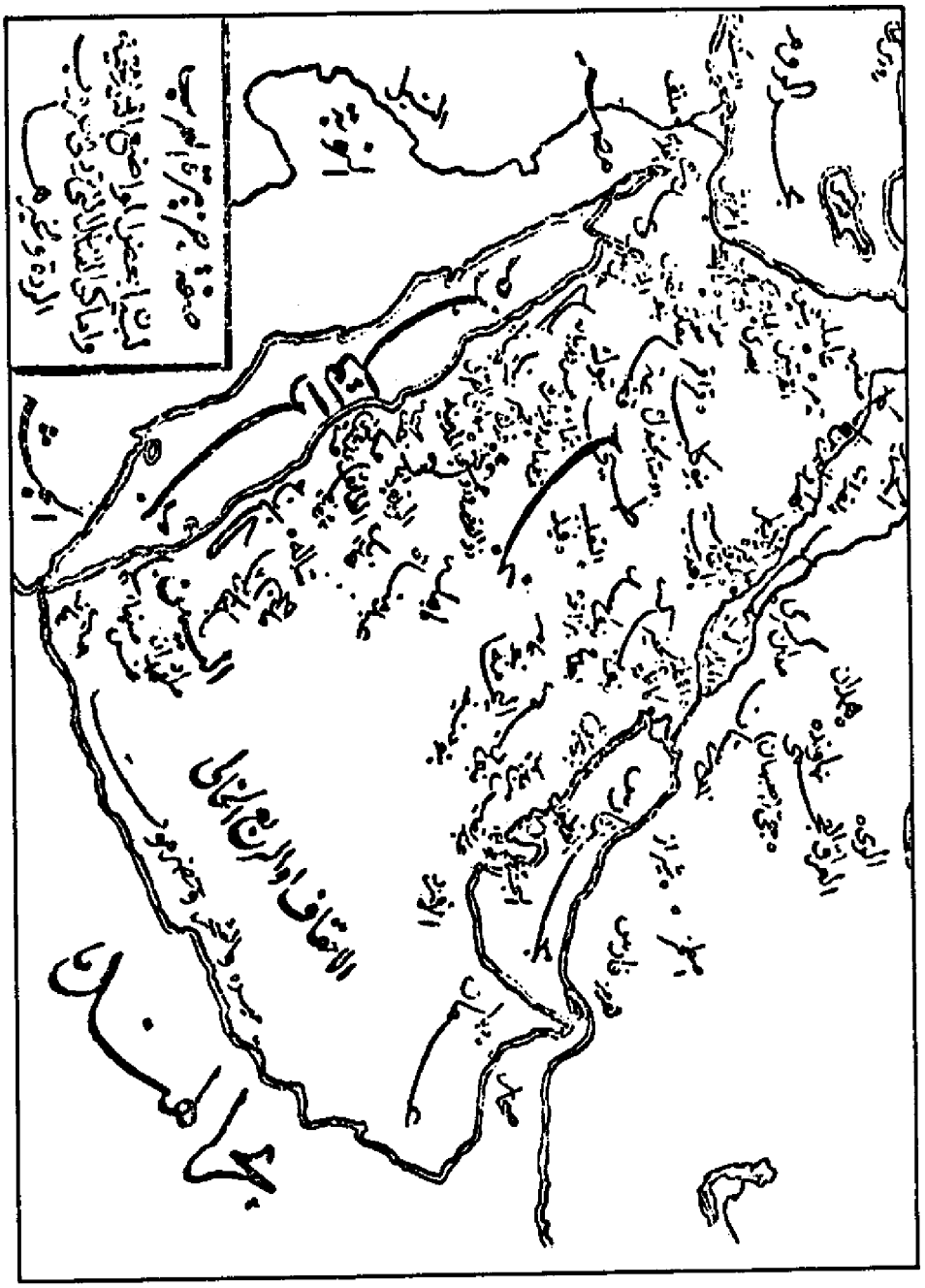

وهي النطق بالشهادتين وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وأخيراً الحج لمن تيسر له القيام به، ولذلك لم يتمكن الإسلام في قلوب الكثير من العرب وخاصة البدو أو الأعراب[3] الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم، ولم يألفوا ما جاء به الإسلام من تعاليم ومثل أطاحت بالمثل الجاهلية، وكانوا يعتقدون أن الأوضاع الجديدة في الجزيرة العربية موقوتة بحياة رسول الله، فلما توفي ﷺ تجرأوا على إعلان خروجهم على سلطان المدينة، وارتدوا عن الإسلام كنظام سياسي وليس إلى الوثنية التي قضى عليها الإسلام قضاء مبرماً.

ولم يكن من السهل على قبائل العرب التي دخلت في الإسلام وأعلنت خضوعها لدولة الرسول في المدينة أن تنسى في أمد قصير عصبياتها القبلية التي جهد رسول الله ﷺ على إذابتها وتشكيل أمة عربية إسلامية أكدتها نصوص صحيفته[4]، ولم تكن هذه القبائل لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها واستمرار هذه الرئاسة بعد وفاة الرسول ﷺ كنوع من الوراثة التي لم يألفها العرب[5]قط.

ولم تكن حركة الردة في جوهرها حركة دينية بقدر ما كانت في الواقع حركة سياسية وضحت فيها العصبيات القبلية[6] وكان طليحة بن خويلد الأسدي[7] ممن تكذب فادعى النبوة في حياة النبي ﷺ والتف حوله جمع من طغام قومه وسفهائهم، فوجه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور وأمره بالقيام مع من استطاع من المسلمين على كل من ارتد فأشجوا طليحة وأخافوه، وضعف أمره حتى لم يبق

(3) اليعقوبي: كتاب البلدان: جـ2 ص129 ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ2 ص348.

(4) انظر كتاب تاريخ الدولة العربية للسيد عبد العزيز سالم من صفحة 349 -354.

(5) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ص12.

(6) الطبري: تاريخه: جـ3 ص217 ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ2 ص341.

(7) طليحة بن خويلد الأسدي: قدم مع وفد أسد بن خزيمة على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة فأسلم، فلما رجع ورجعوا تنبأ طليحة في حياة النبي ﷺ فأرسل إليه ضرار بن الأزور ليقاتله، وبعد وفاة الرسول ﷺ عظم أمر طليحة وأطاعه الخليفان أسد وغطفان وكان يزاعم أنه يأتيه جبريل بالوحي، فأرسل إليه أبو بكر (رضي الله عنه) خالد بن الوليد فقاتله وقضى على فتنته فانهزم طليحة إلى الشام وبقي هناك حتى توفي أبو بكر، ثم خرج محرماً في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وأسلم إسلاماً صحيحاً وجاهد الفرس في القادسية وغيرها جهاد الأبطال المغاوير، لقد كان طليحة من أشجع العرب وكان يعد بألف فارس: ابن حجر: الإصابة: جـ3 ص296 وابن الأثير: أسد الغابة: جـ3 ص65 وابن عبد البر: الاستيعاب: جـ2 ص773.

إلا أخذه سليماً إلا أن ضراراً ضربه ضربة بالسيف فنبا عنه فشاع بين الناس أن السلاح لا يحيك فيه فتزايد جمعه وكثر أتباعه وفيما هم على ذلك، نعي النبي ﷺ فعظم أمره وتفاقم، وسجع الأكاذيب[8] وادعى أن جبريل يأتيه وأمرهم أن يعبدوا الله قياماً وأن يتركوا السجود في الصلاة، وظاهره كثير من العرب للعصبية، ولذا فإنا نجد أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء وعبس وذبيان ومن لف لفهم، ومن هذه القبائل من هو في حلف مع قبيلة أخرى أو يجمعها بسواها أب واحد[9].

صمم أبو بكر الصديق منذ اليوم الذي بويع فيه بالخلافة على أن ينتهج نهج رسول الله ويترسم خطاه ويسلك السبيل التي سلكها في سبيل نشر الإسلام وتوحيد أمة العرب دون أن يخاف وهناً ولا حيرة ولا جبناً، وعلى الرغم من ثقل المهمة التي تحمل تبعتها، فقد آل على نفسه ألا يتساهل في أمور الدين ولا ينحرف عن سواء السبيل مهما كلفه ذلك من تضحيات، وقد عبر عن ذلك في خطبته في اليوم الأول الذي تمت فيه بيعته فقال:

«ولقد قلدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة ولا يد، ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم». ثم بكى وقال: «اعلموا أيها الناس أني لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ولوددت أن بعضكم كفانيه، ولئن أخذتموني بما كان الله يقيم به رسوله من الوحي ما كان ذلك عندي، وما أنا إلا كأحدكم، فإذا رأيتموني قد استقمت فاتبعوني وإن زغت فقوموني...»[10].

وهكذا لم يكن أبو بكر على استعداد للتساهل في أمر من أمور الدولة والدين، عندما ظهرت حركة الردة، وصمم على محاربة المرتدين وعدم مهادنتهم في الوقت الذي أنفذ حملة أسامة بن زيد إلى مقصدها تلبية لأمر سول الله قبل وفاته.

---

(8) من ذلك قوله: «والحمام واليمام والصرد الصوام قد ضمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام» الطبري: تاريخه: جـ 3 ص 260.

(9) كان بين بني أسد وغطفان وطيء حلف في الجاهلية: الطبري: جـ 3 ص 257.

(10) ابن قتيبة: المرجع السابق: ص 19.

وعندما شرع أسامة في الرحيل ارتد عامة العرب وخاصتهم إلا قريشاً وثقيفاً[11]. فأبدى جماعة من المسلمين اعتراضهم على تسيير حملة أسامة بن زيد في وقت انتفض فيه العرب على سلطان المدينة، ونصحوه بإبقاء الجيش، فأجابهم أبو بكر: «والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفي لأنفذت بعث أسامة كما أمر به النبي ﷺ ولم لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته»[12].

كان طليحة بن خويلد الأسدي الذي تنبأ في أواخر حياة الرسول ﷺ قد كثر أتباعه بانضمام أسد وغطفان وطيء وكنانة وفرقهم في نواحي أراضيهم. فأقام فريق منهم في ذي القصة التي تقع على مسافة قريبة إلى الشرق من المدينة، بينما عسكر فريق آخر من بني مرة في الأبرق، وأرسلوا إلى المدينة وفداً منهم يبلغ أبا بكر باستعدادهم لبذل الصلاة ومنع الزكاة، وأشار جماعة من المسلمين على أبي بكر بقبول ما عرضه المرتدون عليه، وقالوا: «اقبل منهم يا خليفة رسول الله، فإن العهد حديث والعرب كثير، ونحن شرذمة قليلون لا طاقة لنا بالعرب، مع أننا سمعنا رسول الله ﷺيقول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر: «هذا من حقها لا بد من القتال» فطلب القوم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يخلو به عله يعدل عن عزمه فيقبل من المرتدين الصلاة ويعفيهم من الزكاة، فلما حدثه عمر في ذلك ورجاه أن يفتر عن قتالهم وقال له: «يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش» فرد عليه أبو بكر بقوله: «رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك جباراً في الجاهلية جوازاً في الإسلام؟ بماذا عساي أن أتألفهم، بشعر مفتعل أو بسحر مفتري؟ هيهات هيهات»[13] ثم قال: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث: شهادة أن لا إله إلا الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصر

---

(11) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص 221.

(12) ابن الأثير: المرجع السابق: جـ2 ص 342.

(13) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص 68.

دونهن»[14]. وعلى هذا النحو عزم أبو بكر عزماً أكيداً على محاربة المرتدين وما نعي الزكاة، إذ اعتبرهم مآرقين متمردين على الدولة العربية الإسلامية.

رد أبو بكر وفود أسد وغطفان وطيء فعادوا وأخبروا قومهم بما عاينوه من ضعف قوة الدفاع عن المدينة، واطمعوهم فيها، ولم يكن أبو بكر بغافل عن نوايا المرتدين العدوانية، فعمل على تدعيم الدفاع حول المدينة تأهباً لمقاتلة المرتدين إذا هاجموا المدينة ليلاً أو نهاراً، فعهد بالدفاع عن أنقاب المدينة، والمقصود بها الطرق الجبلية، إلى علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وعبد الله بن مسعود، وصح ما توقعه أبو بكر، فلم تكد تمضي ثلاث ليال حتى أغار المرتدون من غطفان وبني أسد على المدينة ليلاً، ولكن الغارة ووجهت بمقاومة باسلة وانتهت بالفشل، ولم ينتظر أبو بكر أن يعاودوا الكره، فبادر بالزحف نحو العدو أثناء الليل، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح[16] فانتقم بنو عبس وذبيان من المسلمين بأن وثبوا على من بقي منهم على الإسلام فقتلوهم، فأقسم أبو بكر ليقتلن من المشركين بمن قتلوا من المسلمين.

وفي هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته ظافراً فاستخلفه أبو بكر على المدينة حتى يستريح هو وجنده وزحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل بالأبرق[17]، فقاتل من به من المرتدين وتغلب عليهم وعلى بلاد ذبيان وانسحبت ذبيان وبنو عبس إلى طليحة الأسدي ببزاخة[18]. أما أبو بكر فقد عاد

---

(14) ابن قتيبة: المرجع السابق: ص 20 والبلاذري: فتوح البلدان: جـ 1 ص 113.

(15) محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجادي: أيام العرب في الإسلام، القاهرة ط 1961 ص 142.

(16) الطبري: المرجع السابق: جـ 1 ص 224. وابن الأثير: المرجع السابق: جـ 2 ص 244 ـ ص 245.

(17) يقال له أبرق الزبدة كان في منازل ذبيان: ياقوت: المرجع السابق جـ 1 ص 68.

(18) ياقوت: المرجع السابق: جـ 1 ص 408.

إلى المدينة، وكان أسامة قد استراح هو وجنده وتأهب لخوض المعركة ضد المرتدين، فوزع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، وأذاع الصديق في الناس من أهل شبه الجزيرة جميعاً كتاباً تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من عامة وخاصة، أقام على الإسلام أو رجع عنه وقد بدأ هذا الكتاب بحمد الله والثناء عليه، وذكر بعثَهُ محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً. ثم أشار إلى وفاة رسول الله ﷺ بعد أن بلغ ما أمره الله أن يبلغه للناس وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وقال للمؤمنين: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

وإنما أراد الصديق بذكر هذه الآيات أن يدفع بها ما ثار من الفتنة بقول الذين قالوا: «لو أن محمداً كان رسولاً حقاً ما مات». وبعد أن فرغ من ذلك ومن الإيصاء بتقوى الله والاعتصام بدينه قال: «وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله عز وجل، وجهالة لأمره، وإجابة للشيطان، . . . وإني أنفذت إليكم خالداً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى، أن يقاتله على ذلك، ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ويسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن آمن فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الآذان، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن أذنوا سألوهم ما عليهم، فإن أبو عاجلوهم، وأن أقروا قبل منهم وحمل على من ينبغي لهم»[19].

---

(19) عن مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبيوي والخلافة الراشدة جمعه الدكتور محمد حميد الله الحيدري آبادي ص 260 ـ ص 262. .الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ص 713 -714 -715. ابن كثير: البداية والنهاية: جـ 6 ص 315 -316. الطبري: المرجع السابق: جـ 3 ص 25 «وكان هذا أول منشور عام يقرأ في مجامع الناس وأنديتهم» النجار: تاريخ الخلفاء: ص 44.

أذاع أبو بكر هذا المنشور في مختلف الأنحاء من شبه الجزيرة وإنما ابتغى به أن يدع للمترددين فرصة للتفكير فإنه قد انساق كثيرون وراء الدعاة مخافة مما يصيبهم إذا أقاموا على إسلامهم، فإذا رأوا أنفسهم بين قوتين مالت نفوسهم إلى إسلامها أو مسكوا على الأقل عن نصرة زعماء الردة وبذلك تحقن الدماء.

وكتب أبو بكر لخالد بن الوليد عهداً وهذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ (لخالد بن الوليد) حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتق الله ما استطاع في أمره كله، سره وجهره، وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليه والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم حشداً حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم، ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القبول»[20].

أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يبدأ بطيء على الأكناف[21] ثم يكون وجهه

---

(20) من مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدري آبادي ص 263 ـ ص 264 الطبري: المرجع السابق: جـ 3 ص 251 -252 ومحاضرات الخضري: جـ 1 ص 175 -176.

(21) الأكناف: جبلا طيء: سلما وأجا: معجم البلدان: جـ 1 ص 318.

إلى البزاخة ثم يثلث بالبطاح[22]، ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له، ثم خلا أبو بكر بخالد بن الوليد وألقى إليه وصيته الخالدة، فقال:

«يا خالد عليك بتقوى الله تعالى وإيثاره على من سواه والجهاد في سبيله، والرفق بمن معك من رعيتك فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ، أهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك، ثم لا تخالفهم، فإذا دخلت أرض العدو، فكن بعيداً عن الحملة فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالإدلاء وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل. وسر في صحابك على تعبية جيدة، واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات، فإن في العرب غره، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سريرتهم، وإذا أتيت داراً فأقحم، فإن سمعت آذاناً أو رأيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة، فإن لم تسمع آذاناً ولم ترَ مصلياً شنّ الغارة فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس: شهادة أن لا إلّه ألا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان، وحج البيت، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع، وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا لك ولا عليك، متربص دائرة السوء. ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندي، من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم، فإن كفاك الله الضاحية، فامض إلى أهل اليمامة، سر على بركة الله»[23].

وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر[24] ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف، ولم يكن الخليفة على نية المسير إلى خيبر كما أعلن، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش إلى بزاخة نصاً لمقاصد متعددة: منها أن يخيف بطون طيء حين يقصد إليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التي تهجس في

(22) البطاح: ماء في ديالا بني خزيمة في نجد: معجم البلدان: جـ3 ص 114.

(23) العقاد: عبقرية خالد: ص 123 ـ ص 124.

(24) خيبر: ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الإسم على الولاية، وتشمل هذه الولاية سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، معجم البلدان: جـ3 ص 495.

صدورهم، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه إلى غير بزاخة ومنصرف عنها إلى حين، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا في قتال.

وكان أبو بكر قد بعث عدي بن حاتم إلى قومه قبل أن يوجه خالداً إليهم وقال له: «أدركهم لا يوكلون ويجتاحهم خالد بمن معه» فأسرع عدي إلى قومه ودعاهم وخوفهم وصار يفتلهم في الذروة والغارب حتى أصابوه وقالوا له: «استقبل خالداً فنهنهه[26] عنا ثلاثاً حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يده قتلهم أو ارتهنهم»[27]، فاستقبل عدي خالداً وهو بالسنح[28] وقال له: «أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار وتشاغل بهم»[29] وجاء من عند طليحة منهم كالمدد لقومهم، ورجع عدي إلى خالد بإسلامهم فارتحل نحو الأنس[30] يريد جديلة فقال له عدي: «إن طيٍّ كالطائر وأن جديله أحد جناحي طيء فأجلني أياماً لعل الله أن ينتقد جديله كما انتقد الغوث». ففعل فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه فجاءه بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه عليهم بركة[31] وقد فرح المسلمون به وبقومه فرحاً شديداً فقال شاعرهم:

جزى الله عنا طيئاً في بلادها ... ومعترك الأبطال خير جزاء
هم أهل رايات السماحة والندى ... إذا ما الصبا ألوت بكل خباء
هم ضربوا بعثاً على الدين بعدما ... أجابوا منادي فتنة وعماء[32]

توجه خالد ومن انضم إليه من طيء تلقاء بزاخة حتى كان قريباً منه وكان طليحة قد نزل في جموعه من المرتدين على ماء آخر لهم يقال له الغمر، فقال

---

(25) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص353.
(26) نهنه عنا: أي ادفعه وكفه: الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص253.
(27) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص253.
(28) السنح: موضع بنجد قرب طيء: معجم البلدان: جـ5 ص149.
(29) (30) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص254.
(31) (32) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص254.

عدي بن حاتم لخالد بن الوليد: «يا أبا سليمان اجعل قومي مقدمة أصحابك» فقال له خالد: «يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب، وأنا أخاف أن أقدم قومك فإذا لحمهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا، ولكن دعني أقدم قوماً صبراً لهم سوابق وثبات وهم من قومك ـ يريد المهاجرين الأنصار ـ» فقال عدي: «الرأي ما رأيت»[33].

وهذه نظرة ثاقبة من نظرات أبي سليمان خالد بن الوليد في سياسة الحرب وإدارة دفة الوقائع والعلم بأحوال الرجال وشأن الجند في حومة الوغى، ومنزلة أهل العقائد والإيمان في الإقدام والحرص على الموت استشهاداً في سبيل الله.

وأرسل خالد عكاشة بن محصن[34] وثابت بن أقرم أحد بني العجلان إلى طليحة فقتلا حبالاً أخا طليحة، فلما بلغه مصرع أخيه خرج ومعه أخوه سلمه فقتلا عكاشة وثابتاً ثم رجعا، وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلاً فلم يفطنوا له حتى وطئته المطي باخفافها، فكبر ذلك على المسلمين ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعاً[35] فجزع لذلك المسلمون وقالوا: «قتل سيدان من سادات المسلمين وفارساً من فرسانهم». ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع فآثر ألا يواجه بهم عدوهم حتى تطمئن نفوسهم. لذلك انحرف بهم إلى طيء[36]، واستنفر بمعونة عدي كل من استطاع أن يستنفره من رجالها، ورأى المسلمون عددهم يزداد وقوتهم تتضاعف بهذا العدد، فطابت بالحرب نفوسهم، فسار بهم خالد إلى بزاخة ليقضي على طليحة غير وان ولا متردد[37].

وكانت قيس وبنو أسد متجهزين حول طليحة للقتال، قال قوم من

(33) الطبري: المرجع السابق: جـ 3 ص 255.

(34) عكاشة بن محصن الأسدي: من فضلاء الصحابة وساداتهم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً، وانكسر في يده سيف وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقتله طليحة الأسدي، وكان عكاشة يوم توفي الرسول ﷺ ابن أربع وأربعين سنة وقتل بعد ذلك بسنة وكان من أجمل الرجال، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه بعض الصحابة: طبقات ابن سعد: جـ 3 ص 92، وأسد الغابة لأبن الأثير: جـ 4 ص 2.

(35) البلاذري: أنساب الأشراف: ص 105.

(36) الطبري: المرجع السابق: جـ 3 ص 228.

(37) هيكل: الصديق: ص 118.

الطائيين الذين انضموا إلى جنود خالد: «سألنا خالداً أن نكفيه قيساً فإن بني أسد حلفاؤنا» فقال: «والله ما قيس بأوهن الشوكتين أصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتم». فقال عدي: «لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى فالأدني من قومي لجاهدتهم عليه، أفأنا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم؟. لا والله لا أفعل». فقال له خالد: «إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد، لا تخالف رأي أصحابك، امض إلى أحد الفريقين وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط»[38].

سار خالد على تعبئته[39] يريد طليحة ببزاخة، وانتهى المسلمون إلى معكسر طليحة وهو في قبة من أدم ضربت له، يسجع لأصحابه ويتكهن لهم، فدعاه خالد إلى الإسلام تنفيذاً لعهد الخليفة وعملاً بسنة الإسلام فأبى طليحة وأعرض اعتزازاً بكثافة من معه من الحشود، فانصرف عنه خالد إلى معسكره، وبات يدبر أمره ويشاور أركان حربه، فلما كان السحر دفع باللواء الأعظم إلى زيد بن الخطاب وعقد لواء الأنصار لثابت بن قيس بن شماس، ودنا الناس بعضهم لبعض، وخرج طليحة في كتيبة خاصة، قوامها أربعون غلاماً جلداً أقامهم في الميمنة وقال لهم:

«اضربوا حتى تأتوا الميسرة» ففعلوا فتضعضع الناس ولم يقتل أحد منهم، ثم أقامهم في الميسرة ففعلوا مثل صنعهم الأول فانكشف المسلمون فصاح خالد: يا معشر الأنصار، الله، الله، واقتحموا غمار المعركة وتراجع إليه الأنصار، وتبعهم سائر الناس، فاختلطت الصفوف، واختلفت فيما بين الناس السيوف، وضرس خالد في القتال، فجعل يقحم فرسه، ويقولون له: «الله، الله، فأنك أمير القوم ولا ينبغي لك أن تقدم». فيقول خالد: «والله إني لأعرف ما تقولون ولكني ما رأيتني أصبر وأخاف هزيمة المسلمين»[40].

روى الكلبي عن بعض الطائيين: أن طليحة لما حمل على الناس في كتيبته

---

(38) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص 255.

(39) جعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته، وصمد في القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء: العقاد: المرجع السابق: ص 125.

(40) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص 255 -256 الصادق عرجون: خالد بن الوليد: ص-132 131.

الخاصة نادى منادي الناس: يا خالد: عليك سلمى وأجأ فأجابه خالد: بل إلى الله الملجأ، ثم حمل خالد فوالله ما رجع حتى لم يبق من أولئك الأربعين رجل واحد، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما[41].

يريد الناس من خالد أن يتحصن في ساعة العسرة بالجبال وهو يرى أن يتحصن بالله تعالى خالق الجبال، وإذا لم يكن قواد الجيوش على مثل هذه الثقة

(41) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص256.

ورسوخ الإيمان والشجاعة في لحظات الشدائد التي لا ينفع فيها التحوز والاحتماء بالحصون والقلاع فليس لهم إلى النصر من سبيل، ضرس القتال بين جند الإسلام وأصحاب طليحة يقود كل جماعة رئيسها، وكان عيينه بن حصن الفزارى قد انضم إلى طليحة في سبعمائة من بني فزاره[42] وكانوا من أشد القوم تراميا على القتال، يزمرهم عيينه فيقتحمون حتى إذا لحمتهم الحرب وذاقوا حر السلاح نظروا إلى قائدهم عيينه، وطليحة متزمل بكسائه ينتظر شيطانه: فأتاه عيينه فقال له: «لا أباً لك، هل جاءك جبريل بعد؟» قال: «لا» فرجع وقاتل حتى إذا عضته الحرب وضرس القتال كر عليه فقال: «لا أبا لك أجاءك جبريل بعد؟» قال: «لا» فقال عيينه: «حتى متى قد والله بلغ منا» ثم رجع فقاتل قتالاً شديداً ثم كرَّ عليه فقال: «هل جاءك جبريل بعد؟» قال: «نعم» قال «فماذا قال لك؟» قال: «قال لي أن لك رحاً كرحاه وحديثاً لا تنساه» فقال عيينه: «قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، يا بني فزاره هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب». فانصرفوا وانهزم الناس، فغشوا طليحة يقولون «ماذا تأمرنا؟» فقام فوثب على فرسه وحمل امرأته ونجا بها، وكان قد أعد فرسه عنده وهيأ بعيراً لامرأته النوار ـ ثم قال: «من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل فارفض جمعه.

ثم سلك الحوشية حتى لحق بالشام[43] ونذل في كلب على النقع فأسلم[44]. وحسن إسلامه. وكان ذا عناء وأثر محمود في حروب الفرس في أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) واستشهد هناك.

وقد قيل كثير من الشعر في هذه الموقعة، فمن ذلك قول القعقاع بن عمرو:

ويوماً على ماء البزاخة خالد أثار بها في هبوة الموت عشيراً

---

(42) الطبري: المرجع السابق: جـ 3 ص 256.
(43) البلاذري: المرجع السابق: ص 105.
(44) الطبري: المرجع السابق: جـ 3 ص 299.

وقول ربيعة بن مقروم الضبي:

وقومي فإن أنت كذبتني بقول فاسأل بقومي خبيراً
بنو الحرب يوماً إذا استلأموا حسبتهم في الحديد القروما
فدى ببزاخة أهلي لهم إذا ملئوا بالجموع الحريما[45]

كان بنو عامر بن صعصعة في ساداتهم وقادتهم بالقرب من ساحة القتال لا يقدمون ولا يحجمون فلما دارت الدائرة على طليحة أقبلوا يقولون:

«ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسها»[46] فبايعوا خالداً على ما بايع عليه أهل بزاخة، وكانت بيعته: عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله ولتقيمنَّ الصلاة، ولتؤتن الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم «فيقولن نعم»، ثم إن خالداً لم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان ولا من لف لفهم إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على أهل الإسلام في حال ردتهم، فأتوه بهم فقبل منهم إلا قرة بن هبيرة ونفراً معه أوثقهم، ثم إنه مَثَّلَ بالذين عدواً على الإسلام فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم في الآبار[47].

وكتب إلى أبي بكر: «إن بني عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت في الإسلام بعد تربص وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كل قتلة، وبعثت إليك بقرة وأصحابه»[48].

أوثق خالد عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة فبعث بهما إلى أبي بكر فلما قدما عليه تجاوز عنهما وحقن دمائهما، ثم كتب إلى خالد: «ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جد في أمر الله ولا تنين ولا تظفرن بأحد قتلَ المسلمين إلا قتلته، ونكلت به

(45) ياقوت الحمدي: المرجع السابق: جـ2 ص162.
(46) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص256.
(47) ابن الأثير: أسد الغابة: جـ2 ص133.
(48) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص263.

غيره، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاره ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فأقتله»[49].

أقام خالد على البزاخة شهراً يصعد ويصوب، ويتتبع الثأر ويأخذ الصدقات وبذلك خبت نار الفتنة وقُضيَ على الردّة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة[50].

أما الأسباب التي ساعدت خالداً على النصر الساحق السريع فهي:

1 ـ إن خالداً وجيشه يقاتلون عن عقيدة واثقين بنصر الله وتأييده يرددون قوله تعالى: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ فمن قتل منهم قتل شهيداً ومن سلم عاش سعيداً، في حين أن أعداءهم إنما ينصرون شخصاً للعصبية فحسب، وليس هناك ما يحببهم في الموت أو ينشطهم للترامي على القتال وشتان بين الحالتين.

2 ـ ثورية أبي بكر ومكيدته من أنه سائر بجيش آخر يلاقي به خالداً لقتال العدو، فإن وصول هذا الخبر لمسامع العدو ثبط من همته وأبطأ بكثير ممن كان يريد الانضمام إليه، وجعل الروح المعنوية في جيشه جامدة لا حماس فيها، وهذا السبب وحده كاف لخذلان أكبر جيش، في حين أن جيش المسلمين كان يقاتل بحماسة وشجاعة وثقة بالفوز والنصر.

3 ـ قتل الرجلين اللذين أرسلهما خالد طليعة للجيش احفظت قلوب المسلمين وحرضتهم على قتال عدوهم.

4 ـ انضمام طيء لجيش المسلمين زاد في عدتهم ونشطهم بقدر ما انقضى من عدد عدوهم وأخمد حماسه.

5 ـ افساح المجال لطيء كي تقاتل قيساً كما أرادت شجعها على الاستقلال في الحرب، إذ لو أصر خالد على أن يقاتلوا حلفاءهم من بني أسد كما أراد عدي بن حاتم لقصرت طيء في حربها أي تقصير.

6 ـ تململ عيينة بن حصن الفزاري من القتال، وتثبيطه همة قومه ونشاطهم

---

(49) الطبري: المرجع السابق: جـ3 ص 263.

(50) هيكل: الصديق: ص 125 -126.

ثم انصرافه في قومه والمعركة في أشدها فتابعه باقي الجيش فحقت الهزيمة.

7 ـ إن طليحة الأسدي نفسه ـ وهو قلب الجيش وروحه ـ لم يكن واثقاً من النصر، ورجل يقاتل على نية الهرب خليق بالهزيمة.

المصادر والمراجع

(1) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك ط 1 المطبعة الحسينية و ط سنة 1939 م مطابع الاستقامة. و ط 2 سنة 1969 م تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (مطابع دار المعارف عبر).

(2)ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بعز الدين.

1 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: ط طهران سنة 1377 هـ.

2 ـ الكامل في التاريخ: ط سنة 1965 م مكتبة صادرة بيروت.

(3) ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: البداية والنهاية في التاريخ: سبعة أجزاء ط سنة 1348 هـ القاهرة.

(4) ياقوت الحمدي: شهاب الدين أبو عبد الله الحمدي الرومي: معجم البلدان: تسعة أجزاء، ط 1 سنة 1906 م القاهرة.

(5) ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ط سنة 1325 هـ القاهرة.

(6) اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح: كتاب البلدان: ط سنة 1891 م (ليدن).

(7) البلاذري: أحمد بن يحي بن جابر البلاذري:

1 ـ فتوح البلدان: ط سنة 1932 م المطبعة المصرية بالأزهر و ط سنة 1959 القاهرة.

2 ـ أنساب الأشراف: الجزء الأول: تحقيق د. محمد حميد الله ط سنة 1959 دار المعارف.

3 ـ أنساب الأشراف: الجزء الرابع ط سنة 1936 (القدس).
4 ـ أنساب الأشراف: الجزء الخامس ط سنة 1938 (القدس).
(8) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي. تاريخ الخلفاء: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ط 2 سنة 1959 م.
(9) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ط سنة 1904 القاهرة.
(10) ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ط سنة 1960 القاهرة. تحقيق علي محمد البجاوي.
(11) ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري. الطبقات الكبرى: ط بيروت سنة 1958 م.
(12) عباس محمود العقاد: عبقرية خالد: ط 1 دار الهلال. القاهرة 1971.
(13) عبد الوهاب النجار: تاريخ الإسلام ـ الخلفاء الراشدون ـ ط 2 سنة 1960 القاهرة.
(14) محمد الخضري: محاضراته في تاريخ الأمم والشعوب الإسلامية: ط 4 سنة 1345 هـ مطبعة الاستقامة.
(15) محمد الصادق عرجون: خالد بن الوليد: ط 2 سنة 1967 الدار القومية العربية للطباعة والنشر.
(16) محمد حسن هيكل: الصديق أبو بكر: ط 6 سنة 1971 دار المعارف القاهرة.
(17) عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام: بيروت سنة 1960 م.
(18) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية: ط سنة 1971 م دار النهضة العربية.
(19) الحيدر آبادي: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوية والخلافة الراشدة: القاهرة 1956 م.